باب التربية والتعليم

المكتوب السابع من أميل الى أمه

في ابتداء العشق وغرور الشاب الغرّ بالمعشوقة

عمن في ٢٨ سبتمبر سنة ــ ١٨٦

لقد كان قولك حقا أيتها الوالدة العزيزة فاني قد خدعت نفسي ولا حق لي في الشكوى على كل حال ممن كنت أحبها لانها لم تكن التزمت لي شيئاً ولا وعدتني الصدق في حبي بل انها بما كانت مغمورة فيه من ضروب التبجيل والتكريم تفضلت فقبلت مني اعتباطا صنوف اجلالي ودلائل اعظامي وقد كان هذا منها لي تشريفاً كبيرا وأظن أن من كفران نعمتها ان أتهمها بخياني فانه لم يكن من ذنبها ان كنت جادّا فيما لم يكن غيري يتعاطاه الا هازلا

على أني ان قلت لك اني كنت أفكر في أمرها دائما على هذا النحو كنت كاذبا فان الصدمة التي هدمت صرح غروري بها تلقتها ساعة دهش وذهول خيل لي فيها ان السماء خرت على رأسي وصرت كأني في حيز الفناء وانك قد تقولين انك لست أول من ابتلي بهذه الضروب من انكشاف الاباطيل وزوال الاوهام وهو قول لا ريب عندي في صحته غير ان ما ينتاب الانسان لأول مرة في حياته يخيل له انه لم يحصل لاحد غيره في الدنيا فكنت أسائل نفسي هل يمكن أن يوجد في البرية من يبلغ مبلغها في الخيانة أو ليس الحسن الانقياد للنفاق وأقول انها لشد ماسخرت مني لسلامة نيتي وسرعة تصديقي .... واحس بقشعريرة النميرة تدب في جسمي حتى تبلغ نخاع عظامي.

وأول يوم قامت بنفسي فيه الريب على صدقها فررت من المدينة هائما على وجهي كالمجنون أخبط خبط عشواء وقد تعاقبت على بصري في مسيري مشاهد جمة من سنابل الحنطة المدركة، والقناير المفردة، وما في الهواء من الروح الخافق

وجدا وحبا والكفور والطواحين التي تنكشف للراي في أمكنة مختلفة من خلال حجب الاشجار وقد مزقتها يد الريح ، وخرير الماء المتدفق من ينابيعه المنتحبة تحت الحضرة والديكة المقبطلة المتعاطرمة واقفة على الدمن ورافعة عقيرتها بزقائها النفاذ في كبد السماء ، واسراب العصافير ثائرة متعاقبة في الجو متناثرة ، وغير ذلك من المناظر التي لولا هذه الاحوال لهزت نفسي وشرحت صدري فلم تلفتني عن هذه الفكرة الثابتة في ذهني وهي انها تعشني

لما رجعت الى المدينة كان الليل قد جن فلمحت شبحا مبهما يسري وجدران البيوت كانه ظل فلما بلغ منعطف الشارع سقط عليه ساطع نور الغاز المنعكس فأراني انه فتاة شاحبة اللون رثة الثياب تحمل حقلا على يدها ولست أدري تمام الدراية لماذا خطر بفكري لوهلتها انها غادية ثم مهجرة وسألت نفسي سؤالا محققا هل تتقسم النساء في هذه الايام الى طائفتين طائفة خادعة وطائفة مخدوعة . تأثرت هذه الفتاة بعضا من الزمن يجذبني اليها نوع من العطف لا أعرف سره حق المعرفة فكلما كانت تمر على نور مصباح كنت إخالني أقرأ في وجهها خاطر الانتحار وقد كنت من تسخطي لحالتي بحيث اني كنت اود لو أجد السبيل الى عمل من أعمال البر وما عتمت الفتاة ان دخلت في مأزق من حارات ضيقة مظلمة ينتهي الى فناء تكتنفه اطلال دارسة وفي ركن من هذا الفناء بئر سدت فوهتها بغطاء غليظ من خشب مسوس مشقق فرفعت الغطاء بأحدى يديها المارينين واتكأت بمرفقها عن فم البئر وأرسلت بصرها في غيابتها وعليها سمة القنوط وفي هذه الساعة انفلت القمر من قبضة السحاب فألقى نوره الاغر على بلاط الفتاة المترحل وكنت اذ ذاك مختفيا خلف جزء من جدار أتبع جميع حركات الفتاة المسكينة بامعان لاني لم يكن يخفى عندي ويبدو لي أنها قد صممت على الانتحار وكنت أقول في نفسي : أقل ما في الامر اني هاهنا لأمنعها منه وما كنت أجسر حتى هذه الساعة ان أظهر لها خشية أن تزيدها رؤيتها لمن شاهدها في هذه الحالة غضاضة وذلة فبعد ان تروت هنيهة كان جنينها الكئيب في اثنائها مسرح الانفعال والاضطراب نظرت الى ولدها وهمهمت بكلمات مبهمة وهي تهز رأسها ثم هرولت داخلة أحد الاكواخ الحقيرة وأغلقت بابه عليها

هذا كل ما علمته ويحتمل ان يكون كل ما سأعلمه من أمر هذه البائسة في حياتي وقد كنت تلك الليلة غير أهل لفعل الخير اذا فرض ان من الخير تنجية نفس من الموت كانت تؤمن بالحب ثم اضطرت الى الكفر به ولعنه

كاني بك تسالني كيف ظهر لك انك أحببت امرأة طائشة اجيرة فاستأذنك في تنزيهك عن سماع تفاصيل هذا الامر لانها لا تليق بك ويكفيني في ذلك ان أخبرك بانها كانت تحرض طالبين او ثلاثة غيري على التقرب منها في وقت واحد بقبول مساعيهم وهذا بقطع النظر عن أمير ورتمبورغي (١) يقال انها تحبه لماله فليت شعري هل أبصر أحد في حياته نظيرة لتلك المرأة

لم يكن هملت (٢) مثلي في سوء الحظ لما كان يقول لمعشوقته أو فيليا: «أيتها المرأة اسمك الخور فان اسم صاحبتي هو الكذب والمكر والغش» . هذا هو التمثال الذي بخرته بخور أماني وجعلت له بين الآلهات العفيفات مكانا وكنت اتمنى لو دنت مني الكواكب فانتزعتها من نظامها ونظمت له منها أكليلا . على ان لي أسوة يسليني وهو اني لم أدنس الحب في حال جنوني به

فاعلمي يا أماه انه لا يزال من حقي اذا نظر اليك غير خجل لان خطيئتي أنا كانت سوء حكم لا ارتكابا لشيء من الخنا ولكن هذا لا يقلل من استحياي لعفوك فاغفري لولدك هفوته حتى يمكنه ان يغفرها لنفسه . اه

﴿ المكتوب الثامن من هيلانه الى اميل ﴾

عن لوندرة في ١٠ اكتوبر سنة ١٨٦٠

اعلم يا ولدي العزيز ان ما نقع فيه من ضروب الغي هو الذي يهدينا سبيل الرشد وان ما نقترفه من الذنوب هو الذي ينبئنا اذا تألمت منه ضمائرنا بأن لنا

(١) ورتمبورغي نسبة الى ورتمبورغ احدى ولايات المانيا (٢) هملت هو أمير جوتلاند الذي تظاهر بالجنون ليأخذ بثار أبيه الذي قتله أخوه بالسم وقد كتب عنه شكسبير روايته المشهورة وجوتلاند شبه جزيرة بالدينمارك عدد سكانها ٩٤٢٣٦٠ نفسا وعاصمتها فيبورغ

في نفوسنا قانونا زاجرا وأن الحكمة في رأيي هي ان نستفيد من كليهما التعلم

لم تدهشني نهاية قصتك وسأتحامى كل التحامي ان أعيب سيرتك فيها لانك قد عبتها بنفسك ولم يكن كل ما كان في وسعي تأديته اليك من النصائح قبل ختامها المحزن ليساوي ماوعظتك به تجربتك الذاتية . ان في أمور الكون لعدلا وان الدهر يضطرها الى أن تظهر للناس على حقيقتها وان كان يلذ لحيلة الانسان ان تزينها بالالوان الموهمة وتغشيها بالاستار الحاجبة وبهذا كان الدهر استاذنا جميعا

على اني ان لم أقر لك بأن مكتوبك الاول سبب لي أشد ضروب القلق والحيرة كنت قد كتمتك بعض الحق نعم قد كان لي من الثقة بطيب عنصرك وبما أعرفه فيك من أصول الشرف ما كان يكفيني للتاكد من انك لا تتسفل لارتكاب دنيئة ما ولكني كنت أخاف عليك وأنت في هذه السن خدعة القلب وهجمات العجب المفتون وأماني البسالة الخادعة فما يوجب الاسف ان أصدق الناس فى الحب وأخلصهم له هم كذلك اشدهم تعرضا لمخاطر دسائسه وأما الشبان الذين يتخذون ما عليه الناس قدوة لهم في سيرتهم فان قلوبهم الجامدة لا تنخدع بكذب الظواهر وهم الذين جعلت لهم المحبات المهيجة كما جعلت الخمور المثيلة للسكيرين

تراهم يبذلون من الهمة والنشاط في تحصيل الغبطة أكثر مما يلزم وهم مع هذا في اسوء عيش وانكده هؤلاء الجوالون في ميدان الغرام المتعاطون لدسائسه اعتاضوا عن الحب بظله اعنى الظرف والكياسة في معاشرة النساء وان خسة عواطفهم لتدل على خلوهم من الادراك وهم شبيهون عندي بأشجار الصفصاف الجوفاء التى تصادف على حافة السواقي (الانهار الصغيرة) في انها لتعفن قلوبها لم يبق لها حياة الا في قشورها

ان الامم التى لا تجل رجالها نساءها ولا نساؤها انفسهن غير جديرة بالحرية يدلك على ذلك أن عصور الاستعباد وانحطاط النفوس كانت هي عصور فساد الاخلاق والانهماك فى الرذائل فاذا زالت هيبة الدين من النفوس وانعدم احساس الناس بما عليهم من الفروض الكبرى رأيت الناشئين اذا اعوزهم ما يضيعون فيه أوقاتهم

يتصيدون الملاذ السهلة فاربأ بنفسك عن هذه الردغة (١) فلا مقر لك فيها

اني ربما كنت أعرف منك بنفسك لانه يتفق كثيرا لمن هم في سنك ان يضلوا فيشطوا في طلب مثال من الواقع لما يتخيلونه من منتهى الكمال فيمن يريدون ان يجعلوها مناطا لحبهم وهو قريب المنال حاضر بين أيديهم . ارى انك فوق حنقك على من غرتك نادم على ان كنت غير صادق في حبك فتأمل في باطن ما تحفظه ذاكرتك تجدني قد أصبت المرمى فيما اقول فانك تعلم بوجود ذات من اترابك تفكر فيها ولا تتكلم في شأنها وتنكر ملامح وجهها وابتسامها وجرس صوتها وكل ما يتعلق بها حتى ثنيات حلتها تمام النكر وان مثالها الظاهر ليسري سريان الشعاع فوق كتابك اذا فتحته لتقرأ فيه ما صنفه الشعراء وأنت تود لو تشاهدهما كل ما في الكون من الجمال وتسمع جميع ما للبرية من الاغاريد وهي التي ينطبق عليها ما تتخيله من معنى الفضيلة وتود من اجلها لو تكون أفضل الفضلاء فتلك الذات هي التي تحبها فان لم تكن تأنس من نفسك شيئاً من هذا لم تكن حتى الآن الا طفلا ولم يأن لك ان تعتقد في نفسك انك محب فالحب الحقيقي هو الذي يرفع النفس ويبعث على طلب الخير وعلى ان يقتضي المحب من نفسه لمحبوبه كل ما يقتضيه لنفسه منه لان الحب هو انصاف القلب

فاذا تربصت حتى يحصل في نفسك هذا الوجدان الطاهر فاياك ان تدنس اسمه بإجرائه على لسانك قبل حصوله والا ندمت فيما بعد أن لوثت شفتيك بالكذب

وللشبان خطأ آخر في الحب وهو انهم يظنون انه اذا حصل بدسائس ووقائع كالتي تروى في القصص ازدادت لذته وكثر الابتهاج به فليس الامر كما يتوهمون لان في الحب من العظمة الذاتية ما يغنيه عن زخارف الخيال . ان الفلاح البار اذا راح الى بيته مساء بعد فراغ عمله وجلس لتناول مرقته وأخذ يلحظ زوجته وهي تغزل أو تخيط بجانب المصطلى ثم يمسح رؤوس أولاده غلاظ المضلات منادياً كلا منهم باسمه وينكر في نفسه زمن ترقبه لزوجته « جنة » يوم الاحد في ظل شجرة الدردار الكبرى في المزرعة ويراها لا تزال غضة الحسن موفورة الشباب كان أبهج

(١) الردغة الماء والطين والوحل الشديد

خيالا اضعافا كثيرة من سطلي إلاهة من إلاهات الحب الجديدة

الشباب هو من الاماني والاحلام وطور الخيالات والاوهام ثم ان كثرة المطالعة لا ثمرة لها في أغلب الاحيان الا افساد حكم القلب. على ان الحب في غاية الغنى عن القصص الخرافية لانه عبارة عن تاريخ لاصح ما في فطرتنا من ضروب الوجدان واشدها استقلالا فويل لمن لا يعشق ويتوله الا في الحلم لانه لا يلبث ان ينكشف وهمه اذا حان وقت انتباهه .

يجب عليك قبل اهتمامك باختيار امرأة تحبها ان تجد لنفسك بين الناس مقاما فان كل عمل تعمله في سبيل تحصيل العلم ورفع شأنك في نظر نفسك ومطالبة ما للأثرة من أنواع الميل الاعمى وبلوغ ما للانسان من الشرف يفيد المرأة التي تحبها كما يفيدك وكن واثقا بأن هذا لا بد منك في حقها كثيرا اذا كان يهمك ان تكون أهلا لاجلالها لك حفظا لشرفك وصونا لعرضك

حاشية : فاني ان أخبرك بأن « لولا » تعلم الطب من أجل أن تقبلها جمعية الطبيبات بلو ندرة في عدادهن وكانا نحبك اه

(المنار) ليتأمل الأديب هذا التذكير اللطيف بلولا التي تربت مع أميل مثل تربيته بعد بيان من تستحق الحب وبيان حقيقته وغرور الشبان فيه فيالله ما هذه الحكمة في هذه البلاغة

﴿ التقريظ ﴾

﴿ فرقان القلوب ﴾

كتيب جديد للشيخ محمد ابي الهدى افندي الصيادي الشهير قال في فاتحته « وأرى ان هذا الكتاب المستطاب جدير بأن يدرس في مكاتب الاسلام . لينتفع به ان شاء الله الخاص والعام ، فبإقرائه ينتفع بالثواب المنتمي ، و بتعلمه